

يَسْتَعِزُّهُمْ مِنَ الْآزِفِ غَرَفْتَهُ وَمَرَّعَهُ جَمِيعاً ﴿١٠٣﴾ وَفَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ لَجِئْنَا بِكُمْ لِعِيباً ﴿١٠٤﴾

[سورة الإسراء: 101 - 104]

الفهم

الشرح :

تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ : معجزات واضحات.

مَسْخُورًا : مغلوبا على عقلك، مخدوعا.

مَثْبُورًا : هالكا بانصرافك عن الحق والخير.

يَسْتَعِزُّهُمْ : يستخفهم ويخرجهم من ديار مصر.

لِعِيباً : مختلطين من أحياء وقبائل شتى.

استخلاص مضامين الآيات:

1- بم كذب فرعون؟ ولماذا؟

2- من أهلك الله سبحانه في الآيات؟ ولمن مكن في أرضه؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: تكذيب فرعون بمعجزات موسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ-اتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، اتفق المتأولون والرواة أن الآيات

الخمس التي في سورة الأعراف هي من هذه التسع، وهي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. واختلفوا في الأربع، فقال ابن عباس: هي يده ولسانه حين انحلت عقده وعصاه والبحر. وقال محمد بن كعب القرطبي: هي البحر والعصا والطمسة والحجر، وقال: سألني عن ذلك عمر بن عبد العزيز فأخبرته، فقال لي: وما الطمسة؟ فقلت: دعا موسى وأمن هارون، فطمس الله أموالهم وردّها حجارة. فقال عمر: وهل يكون الفقه إلا هكذا؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب كانت لعبد العزيز بن مروان (أبيه) جمعها بمصر، فاستخرج منها الجوزة والبيضة والعدسة وهي كلها حجر كانت من بقايا أموال آل فرعون. وقال الضحاك: هي إلقاء العصا مرتين واليد وعقدة لسانه. وقال عكرمة ومطر الوراق والشعبي: هي العصا واليد والسنون ونقص الثمرات. وقال الحسن: هي العصا في كونها ثعبانا وتلقف العصا ما يأفكون. وقال ابن عباس: هي السنون في بواديهم ونقص الثمرات في قراهم واليد والعصا. وروى مطرف عن مالك أنها: العصا واليد والجبل إذ نتق والبحر. وروى ابن وهب عنه مكان البحر الحجر.

والذي يلزم من الآية أن الله تعالى خص من آيات موسى التي تنيف على أربعة وعشرين تسعا بالذكر، ووصفها بالبيان ولم يعينها. وقد اختلف العلماء في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها أو روايتهم التوقيف في ذلك.

وقالت فرقة: آيات موسى إنما أريد بها آيات التوراة التي هي أوامر ونواه. وروى في هذا صفوان بن عسال أن يهوديا من يهود المدينة قال لآخر: سر بنا إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى، فقال له الآخر: لا تقل: إنه نبي، فإنه لو سمعك صار له أربع أعين، قال: فسارا إلى رسول الله ﷺ فسألاه، فقال: "هن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفروا من الزحف، .. وعليكم اليهود خاصة ألا تعتدوا في السبت" [سنن الترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل].

وقوله تعالى: ﴿فَسَأَلْنِيهِ إِسْرَءِيلُ أَنْ يَنْجِيَهُ مِنْ قَوْلِ الْكَافِرِينَ، وَمِنْ عَوْنِ إِيَّاهُ كُنْزًا يَمْوِسُ مَسْخُورًا﴾. قرأ الجمهور ﴿فَسَأَلْنِيهِ إِسْرَءِيلُ﴾ وروى عن ابن كثير والكسائي "فسل" على لغة من قال سال

يسأل. وهذا كله على معنى الأمر لمحمد ﷺ أي: اسأل معاصريك عما أعلمناك به من غيب هذه القصة. ثم قال: ﴿إِنِ جَاءَهُمْ﴾ يريد آباءهم، وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم. ويحتمل أن يريد: فاسأل بني إسرائيل الأولين الذين جاءهم موسى، وتكون إحالته إياه على سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في أحوالهم وما في كتبهم، نحو قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْنِي أَنزِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِ رُسُلِنَا﴾ [الزخرف: 44]، وهذا كما تقول لمن تعظه: سل الأمم الخالية هل بقي منها مخلص؟ ونحو هذا مما يجعل النظر فيه مكان السؤال. قال الحسن: سؤالك نظرك في القرآن. وقرأ ابن عباس "فسأل بني إسرائيل" أي: فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أي: طلبهم لينجيهم من العذاب.

وقوله: ﴿مَسْحُورًا﴾ اختلف فيه المتأولون، فقالت فرقة: هو مفعول على باب، أي: إنك قد سحرت فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم. وقال الطبري: هو مفعول بمعنى فاعل كما قال: ﴿جَبَابًا مَّشُورًا﴾ [الإسراء: 45]، وكما قالوا: مشووم وميمون، وإنما هو شائم ويأمن.

قال ابن عطية: وهذا لا يتخرج إلا على النسب، أي: ذا سحر ملكته وعلمته، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك. وهذه مخاطبة تنقص، فيستقيم أن يكون مسحورا مفعولا على ظاهره. وعلى أن يكون بمعنى ساحر يعارضنا ما حكى عنهم أنهم قالوا له على جهة المدح: ﴿بِآيَةِ السَّاحِرِ الدُّعُ لَتَارَبًا﴾ [الزخرف: 48] فإما أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإما أن يكون فيهم لكنه تنقل من تنقصه إلى تعظيمه، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَعَدُوِّ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَإِرٍ وَرَإِنِّي لَأَكْضِبُهُمْ﴾، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنه قرأ "علمت" بقاء المتكلم مضمومة، وهي قراءة الكسائي. قال علي رضي الله عنه: ما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى. وتتقوى هذه القراءة لمن تأول ﴿مَسْحُورًا﴾ على باب. فلما رماه فرعون بأنه قد سحر ففسد نظره وعقله وكلامه رد هو عليه بأنه يعلم آيات الله، وأنه ليس بمسحور، بل محرر لما يأتي به.

وقرأ الجمهور ﴿قَالَ لَعَدُوِّ عَلِمْتَ﴾ بقاء المخاطب مفتوحة، فكأن موسى عليه السلام رماه بأنه يكفر عنادا. ومن قال بوقوع الكفر عنادا فله تعلق بهذه الآية، وجعلها كقوله عز وجل:

﴿وَحَدِّثُوا يُحَاوِلُوا اسْتِيفَتْلَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: 14]. وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس، ونحا إلى ذلك الزجاج. وهي بعد معرضة لاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغا على فرعون في التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون. ومن يريد من الآية وقوع الكفر عنادا فإنما يجعل هذا خبرا من موسى عن علم فرعون. والإشارة بـ ﴿قَوْلَاءَ﴾ إلى التسع الآيات.

وقوله: ﴿بَصَائِرُ﴾ جمع بصيرة وهي الطريقة، أي: طرائق يهتدى بها. وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها. ونصب "بصائر" على الحال. و"المنثور" المهلك، قاله مجاهد. وقال ابن عباس والضحاك: هو المغلوب. وقال ابن زيد: هو المخبول. وروي عن ابن عباس أنه فسر به بالملعون.

وقال بعض العلماء: كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع، ويؤمر بالقول اللين، ويطلب الوزير، فلما تقوت نفسه بقوى النبوة تجلد وقابل فرعون بأكثر مما أمر به بحسب اجتهاده الجائر له. قال ابن زيد: اجترأ موسى أن يقول له فوق ما أمره الله به. وقالت فرقة: بل المنثور المغلوب المختدع، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعانا.

ثانيا: إهلاك الله تعالى لفرعون وتمكينه للمؤمنين من بني إسرائيل في الأرض:

وقوله عز وجل: ﴿بَلَّارًا أَن يَسْتَعِزَّ هُم مِّنَ اللَّهِ بِأَعْرَفْتَهُ وَمَرَّعَهُ رَجْمِعًا﴾، يستفهم معناه: يستخفهم ويقلعهما إما بقتل أو بإجلاء. والأرض: أرض مصر. وقد تقدم أنه متى ذكرت الأرض عموما فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص. قال ابن عطية: واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل، وإنما ذكرت عظم الأمر وخطيره، وذلك طرفاه: أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بدء الأمر، ﴿بَلَّارًا أَن يَسْتَعِزَّ هُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: أغرقه الله وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر.

ثم ذكر تعالى أمر بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشام، فقال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا مِّن بَعْدِهِ لَئِنِجِ إِسْرَائِيلَ أَن سَكُنُوا فِي الْأَرْضِ فَإِنذِ اجَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ لَجِيئًا بِكُمْ لِعِيعَا﴾ ووعد

الآخرة: هو يوم القيامة. و﴿لَعِيبًا﴾ اللفيف: الجمع المختلط الذي قد لف بعضه إلى بعض، فليس ثم قبائل ولا انحياز. قال بعض اللغويين: هو من أسماء الجموع ولا واحد له من لفظه. وقال الطبري: هو بمعنى المصدر، كقول القائل: لففته لفا ولفيفا، وفي هذا نظر فتأمله.

ثالثا: مقاصد الآيات:

ترشد هذه الآيات إلى جملة من المقاصد التربوية، منها:

- تأييد الله سبحانه لموسى عليه السلام بالمعجزات الباهرة دلالة على صدق رسالته، وفي هذا رد على مشركي مكة الذين طالبوا رسول الله ﷺ بالمعجزات، وبيان بأنها لن تنفعهم كما لم تنفع فرعون وقومه.
- إنعام الله سبحانه على عبده موسى ومن تبعه من بني إسرائيل إذ أيدته بالمعجزات الخارقة ونجاه وقومه من عدوهم، ومكن لهم في الأرض يتصرفون فيها كيفما يشاءون.

التقويم

- 1 - لماذا لم ينتفع فرعون وقومه بمعجزات موسى عليه السلام رغم عظمتها؟
- 2 - أستنتج من الآيات عاقبة عناد فرعون وقومه وطغيانهم.
- 3 - أبين أثر اختلاف القراءات في قوله: ﴿لَفَدَّ عَلِمْتَ﴾ على معنى الآية.
- 4 - ما الغاية من ذكر قصة موسى وفرعون في معرض الحديث عن المشركين؟

الاستثمار

" اَعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. أَحَدُهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَزَالَ الْعُقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ، قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ: ذَهَبَتِ الْعُجْمَةُ وَصَارَ فَصِيحًا. وَثَانِيهَا: انْقِلَابُ الْعَصَا حَيَّةً. وَثَالِثُهَا: تَلَقُّفُ الْحَيَّةِ حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ مَعَ

كَثَرَتْهَا. وَرَابِعُهَا: الْيَدُ الْبَيْضَاءُ. وَخَمْسَةُ أُخْرُ وَهِيَ: الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ
وَالدَّمَ. وَالْعَاشِرُ: شَقُّ الْبَحْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ بَرَفْنَا بِكُمُ النَّمْرَ﴾ [البقرة: 49] وَالْحَادِي
عَشَرَ: الْحَجَرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَيُّهَا ضَرْبُ يَعْقَلٍ أَلْتَجَرُّ﴾ [الأعراف: 160]. الثَّانِي عَشَرَ: إِضْلَالُ
الْجَبَلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ بَقَوْلِهِمْ كَانَتْ هَضْبَةً﴾ [الأعراف: 171]. وَالثَّالِثَ
عَشَرَ: أَنْزَالُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ. وَالرَّابِعَ عَشَرَ وَالْخَامِسَ عَشَرَ: قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا شَبَابَهُمْ﴾ [الأعراف: 129].. وَالسَّادِسَ عَشَرَ:
الطَّمْسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ مِنَ النَّخْلِ وَالذَّقِيقِ وَالْأَطْعِمَةِ وَالذَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ."

[مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: 21 / 414].

أَتأمل النص وأجمع بين ما ورد فيه وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ-اتَّبَعْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ﴾ اعتماداً على قاعدة أصولية.

الإعداد القبلي

أَتأمل الآيات: 105 - 108 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: ﴿وَيَا لِحَقِّ نَزْلُهُ﴾ - ﴿وَيَا لِحَقِّ نَزْلٍ﴾ - ﴿وَفُرْءَانَا بَرَفْنَا﴾ -
﴿عَلَى مَكْنٍ﴾ - ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ - ﴿أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ - ﴿يَخْشَوْنَ﴾.

2 - ما الحكمة من تنويه الله عز وجل بالقرآن الكريم في هذه الآيات؟

3 - ما الذي يفيد الحصر في قوله تعالى: ﴿وَيَا لِحَقِّ نَزْلٍ﴾؟ وما فائدة تكرار هذا مع قوله
سبحانه: ﴿وَيَا لِحَقِّ نَزْلُهُ﴾؟